

٧ - منيرة المهديّة وأم كلثوم بين الأصالة والمعاصرة (*)

منيرة المهديّة مطربة التخت الشراوية (١٨٨٨ - ١٩٦٥) التي تربعت على عرش الطرب لفترة بعد أن عرفها جمهور القاهرة مطربة وراقصة في مقاهي ومسارح الأزيكيا، كانت أغانيها معبرة عن قيم مرحلة معينة تسابير الذوق السائد وتتملق الغرائز التي عاشها المجتمع المصري في ذلك الوقت حيث كان المغنون والمستمعون يتبعون طريقة "الهنك والرنك"، و"يا سيدى أه"، و"أمان أمان" ويظل المطرب طوال الليل يتوجع ويتئنّى ويمتدّد والسميعة حوله يمارسون نفس الطقوس.^(١)

وأم كلثوم الفلاحة المصرية ابنه "طمای الزهايرة" بمركز السنبلوين دهليّة (١٩٠٤ - ١٩٧٥) التي ارتدت ملابس الفتیان وليست بالباطو والكوفيه والعقال على الطريقة البدوية، والتي لم تغنى في البداية سوى الأغاني الدينية، وكانت الموالد بمثابة المدرسة الأولى التي تربت وترعرعت فيها، ثم صعدت إلى قمة المنافسة مع منيرة المهديّة واستطاعت أن تترك مسافة غير قصيرة بينهما.

لماذا انطفاً نجم منيرة التي كانت كلمتها لدى كبار رجال الحكومة لا ترد، وكان الوزراء يتقربون إليها لدرجة قيل معها ان "حسين رشدي باشا" كان يعقد جلسات مجلس الوزراء في عوامتها، وأن "عبد الخالق ثروت" و"اسماعيل صدقي" كانا من عشاق صوتها، وبرز نجم الفلاحة المصرية الموهوبة التي كان لا حول لها ولا قوة سوى حنجرتها وابتعادها عن كل ما يسيء إلى فن الغناء؟ قد يقول البعض ان صوت أم كلثوم كان جميلا وهذه حقيقة، ولكن لا ينكر أحد أن صوت منيرة المهديّة كان جميلا أيضا، فقد كانت سيده اللبالي الملاح بصوتها وبحته المثيرة وأغانيها التي كانت تدور حول نوح السميعة ورغباتهم وتهز أوتار قلوبهم، ولكن الفرق بينهما أن صوت منيرة كان صوتا جميلا بلا فن، بينما كان صوت أم كلثوم صوتا مرهفا نواقا، فقد كانت أم كلثوم تعيش النغم بكل وجدانها بل وكيانها خاصة وأنها كانت لا تغنى اللحن فحسب بل كانت تعيشه وتحياه كما انها كانت تحترم فنها ونفسها وهذا هو الفرق بينها وبين منيرة، يضاف إلى ذلك أنها كانت شديدة الميل إلى التجديد، كما كان صوتها العبقري وأداؤها الذكي أول درجتين في صعود نجمها على نجم منيرة المهديّة، وفيما يلي نعرض لكل منهما.

أولا: رحلة منيرة المهديّة مع الغناء:

بدأت زكية حسن منصور التي أطلق عليها منيرة المهديّة بعد أن احترفت فن الغناء بدأت رحلتها مع الطرب كمغنية في مقاهي الرقص وحفلات الأفراح ولم تبرز شهرتها إلا في عام ١٩١٥ بعد أن حضرت إلى القاهرة وغنت ورقصت في ملاهيها، ثم ازدادت هذه الشهرة بعد انضمامها لفرقة "عزيز عيد" الكوميديّة لتغنى أغاني "الشيخ سلامة حجازي"، وكان نجاحها يرتكز على جمالها الفتان فقد كانت - كما يذكر الدكتور عبد الحميد زكي - مضيئة الملامح، وضياء الجبين، زرقاء العينين، كستنائية الشعر فارعة الجسم وهبها الله صوتا عذبا جميلا يهز أوتار القلوب، وقد تعاونت كل هذه الصفات في نجاحها، واجتذاب جمهور المستمعين نحوها خاصة وان بحة صوتها المثيرة وأغانيها المكشوفة التي تتعرض لما يدور وراء الستارة وفي المندرّة كانت تسابير متطلباتهم والتي كان أبرزها أغاني "عصفور أهشه وانكش له عشه" وعصفوري يامه عصفوري" و"إيه اللي جرى في المندرّة شيء ما اعلموش ساعتها.. ساعة ما جرى أنا كنت لسه صغيرة" و"ارخي الستار اللي في ريحنا.. أحسن جيرانا تجرحنا" وتعالى بقى يا شاطر نروح القناطر" و"هات القزازه واقعد لاعبني.. دا المزة طازه والحال عاجبني" وقد استطاعت منيرة المهديّة بهذه الأغاني ان تشجى الجمهور وتطريه وتحوز رضاه واعجابه حتى أطلق عليها "سلطانة الطرب" والمطربة التي كان الذهب ينثر تحت قدميها، ثم ازداد

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة الشرطة في عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

اسمها لمعانا بعد عملها بالمسرح خاصة بعد أن اتفق معها "عزيز عيد" لتقوم بالغناء فى لياليه التمثيلية بمسرح "برنتانيا"^(٢)، وظلت منيرة تطرب جمهور المسرح بقصائد الشيخ سلامة حجازى وغيرها حتى كونت فرقة خاصة بها واستمر نجمها ساطعا حتى ظهرت أم كلثوم، وبدأ جمهور هواة الطرب ينصرف عن الاستماع إلى الغناء القديم، وتسيطر عليه روح الفن الجديد، وبينما تمكست منيرة بالمحافظة على أصول فنها الذى تشكلت أوتار حنجرتها عليه حتى جاءت أم كلثوم بحجره جديدة حافلة بكل ألوان التجديد مما أدى إلى لمعان اسمها بينما خفت بريق منيرة المهديّة، وجعل عرش الغناء تهتز من تحتها رغم ما أحيط به من صولجان وأبهة خاصة وانها لم تستطع التخلص من عدوى الغناء العثماني والعجري^(٣)، ومن جلسات الغناء فى الصالات والمسارح التى كان يغرق فيها المستمعون فى بحار الخمر والعريضة والكلمات غير اللائقة.

ثانيا: رحلة أم كلثوم مع الغناء:

بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها "ابراهيم البلتاجى" المنشد فى الموالد وأفراح القرى، وهى ترتدى الشال والعقال وملابس الصبيان، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى الذى قام والدها بتحفيظه إياها، ثم التقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ "أبو العلا محمد" احد أعمدة الغناء العربى والذى تصادف وأن سمعها فى القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف انه موجود فى القطار، وتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة فى عام ١٩٢٢م وأخذت تغنى فى "مقهى سانتي" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" فى ميدان باب الحديد بدون فرقة موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية وخلال هذه الفترة كان الشيخ "أبو العلا" بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها، ونقل ذوقه الفنى إليها، ودرّب حنجرتها على الألحان العربية الصميّة، وبدأ بتحفيظها قصائد "عبد الحامولى" ويديربها على ألحانه، ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تلخيص الغناء المصرى من رنة الغناء العثماني والعجري، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا رقيقا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقدته وينطلق بالموسيقى العربية فى آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى، وعن همومه وأفراحه.^(٤)

وقد وجد الشيخ أبو العلا فى أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه تبني هذه الموهبة، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية فظهرت أمام الجمهور فى القاهرة، وكان ذلك خلال حفل للكشافة المصرية فى عام ١٩٢٣ بأغنية "مولاي كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرما". ولم تكد تبدأ الغناء حتى ظهرت ملامح الرفض عليها بين المستمعين فتتهد أحدهم قائلا "كتب علينا الغلب يا أختي" وانفجرت موجه عالية من الضحك بين الناس مما أدى إلى بكاء المطربة الناشئة وتطرق اليأس إلى نفسها، ولكنها استطاعت أن تسترد ثقتها بنفسها بفضل أستاذها الشيخ أبو العلا الذى أوضح لها أن جمهور المستمعين مادة خام يمكن تطويعها تدريجيا.

وعلى الرغم من تمسك جمهور المستمعين بمطالبة أم كلثوم بغناء الأغاني السائدة، فقد رفضت ان تسامر الموجه، وعبرت عن أصالة الفنان مدركة أن جوهر دوره هو أن يهذب الأذواق ويرتفع بمستوى جمهوره ويسمو بمشاعره.

وظل الشيخ أبو العلا بجانب أم كلثوم حتى وقت على قدميها فغنت له عشرة الحان منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب"^(٥)، وتشاء الظروف ان يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد

الرازق وأسرة آل المهدي وهذا من الأسر المعروفة برعايتها للعلم والفن. ومن خلال هاتان الأسترتان استطاعت أم كلثوم ان تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر. وأثناء ذلك بدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه. وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية، ونجحت أن تعود أذان الناس على أغنيات جديدة، وعلى ألحان جديدة كما ارتبط ظهورها بثروة قومية فى الموسيقى والطرب.^(١)

ثالثا: موقف منيرة المهديّة من أم كلثوم:

بعد أن جاءت أم كلثوم من قرية "طمای الزهايرة" إلى القاهرة تاركة من خلفها عيدان الذرة وسنابل القمح وغطت شهرتها على مطربات عصرها أمثال منيرة المهديّة، وتوحيدة، ونعيمة المصري، وفتحية احمد وغيرها.

بدأت منيرة المهديّة تعلن عليها الحرب، وتحاول الاساءة إليها خاصة بعد أن سمعت أن جماهير الطرب تحولوا إليها، فحاولت ان تعرف سر ذلك، حتى يمكنها مواجهته. وفى أحد الليالى ارتدت منيرة المهديّة ملية لف ووضعت على وجهها برقعا وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغنى أم كلثوم، واشترت منيرة تذكره فى أعلى التياترو وهى أرخص مقعد فى المسرح، وجلست تسمع ام كلثوم وسط تهليل المستمعين وهنئاتهم بحياتها. ولم تحتمل منيرة المهديّة ان تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم فتركت المسرح غاضبة ساخطة، وعادت إلى عوامتها فى النيل وهى تكاد تجن غضبا وسخطا، وأخذت تفكر كيف تقضى على هذه الفلاحة التى أصبحت تهدد سلطانها وهداها تفكيرها إلى اللجوء للصحافة وشراء ذمم بعض كتابها، فأصبحت مجلة المسرح هى مجلة منيرة التى تهاجم أم كلثوم وتحاول الإساءة إليها فى عفتها وشرفها.^(٧) مما دفع والدها إلى التفكير فى مغادرة القاهرة، والعودة بابنته إلى "طمای الزهايرة".

يضاف إلى ذلك أن أم كلثوم تعرضت للعديد من الافتراءات والاتهامات بهدف اشغالها عن فنها، فادعى رجل من نوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا بأنها زوجته، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفزيونية التى كانت ترهق أعصابها، كما حاولت سلطنة الطرب منيرة المهديّة الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها، وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتتزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية، ويقف من خلفها التخت، وتردد بعض الأغاني الدينية والطاقاطيق متحديّة بذلك أم كلثوم الحقيقية. وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد، نشرتها الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها. كما كانت تكتب فى اعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتفت وراءها، وانخفت الفتاة الأخرى خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود، ووقفت كالطود الشامخ تنكسر الأمواج تحت قدميها، وصمدت لكل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف. لا تهتم إلا بفنّها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنّها، وصوتها الجميل. وقبل ان تستسلم منيرة لفسلها النهائى حياها مواجهة صوت أم كلثوم طلبت من الملحن رياض القصبجى - الذى قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر ثلاثين لحنًا كانت تعد أعلى صيحة فى التجديد الغنائى - أن يلحن لها أغنية على غرار أغاني أم كلثوم، واستجاب القصبجى لنداء منيرة، فلحن لها أغنية حافلة بالوان التجديد ولكنها - كما يقول كمال النجمى - لم تستطع أن تكسب شيئا من هذه الأغنية لأن صوتها العثمانى العجوى ونطقها العاجز أفسدا الأغنية، وطمسا معالم التجديد فيها.

منيرة المهديّة وأم كلثوم كشهود عيان لفترات مهمة من تاريخ مصر:

منيرة المهديّة وأم كلثوم من الشخصيات التي يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصري، خاصة وأن كل منهما تحمل في حياتها قصة هذا الشعب، وقصة العصر الذي عاشته فقد عاصرت كل منهما عهد الخديو عباس الثاني والحماية البريطانية على مصر، وعهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية، وعاصرت فترة ابنه فاروق كما عاصرت قيام ثورة يوليو، وتوقيع اتفاقية الجلاء، وتأميم قناة السويس والسد العالي والصحة السياسية المصرية على المستويين العربي والعالمي والتي عبرت عنها أم كلثوم في أغانيها، وعاشتها منيرة المهديّة ولكن بعد انطفاء نجمها لذلك فإن حياة كل منهما تذكرنا بجزء منهم من حياة المصريين، ومن تاريخ مصر الحديث وفترة المخاض التي عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين. فقد عاشت كل منهما عصر الكفاح الوطني ضد الانجليز في كافة مناحيه السياسية والاقتصادية والفكرية فشهدا عصر مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وطلعت حرب ومصطفى عبد الرزاق واحمد شوقي وطه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وغيرهم، وشاركا بفنهما في تفجير طاقات الانسان المصري، وكانتا أحد العوامل المؤثرة في بعث الشعور الوطني خاصة وأن مصر كانت تكن تحت وطأة الاحتلال الانجليزي الذي فرض وصاياه على كل مقدرات المجتمع تقريبا، فغنت أم كلثوم لسعد زغلول وانشدت لفلسطين ولايبطال الفالوجا ولأعياد مصر الوطنية جميعها^(١)، كما غنت منيرة المهديّة لسعد زغلول ولثورة ١٩١٩^(٢)، يضاف إلى ذلك أن الحكومة التركية برئاسة كمال اتاتورك دعتهما للغناء، واستقبلت هناك استقبالا حافلا.

ومما سبق يتضح أن منيرة المهديّة كانت ذات صوت لامع عريض يرتفع بقوة حيث تنفجر منه تلك البحة المشهورة التي زادته إثارة وتفردا، ومع ذلك فقد كانت محدودة المقدرة على الأداء أما أم كلثوم فقد استطاعت أن ترتقي بفن الغناء وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ونغمة صافية للحب والسعادة حتى لقيت بقيئاره السماء، وكوكب الشرق. وهذا كان السبب في أن منيرة المهديّة انزعجت من ظهور أم كلثوم ولم تصمد أمامها، بل انسحبت من الميدان بعد مناقسة حامية.^(١٠)

الهوامش

- ١- زكريا هاشم: أم كلثوم تحفة العصر ومعجزة الدهر، القاهرة، مطبعة التقدم ١٩٨٣، ص ٩.
- ٢- الأخبار في ١٨/٨/١٩١٥ ومجلة المسرح في ٣٠/٥/١٩٣٧.
- ٣- سيد على اسماعيل: مسيرة المسرح في مصر ١٩٠٠-١٩٣٥، ج١، فرق المسرح الغنائي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣، ص ٣٨٥.
- ٤- رجاء النقاش: لغز أم كلثوم، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص ١٠٧.
- ٥- سهير عبد الفتاح: حياة صوت أم كلثوم، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، ص ١٧-٢٠.
- ٦- كمال النجمي: الغناء المصري، القاهرة، كتاب الهلال سبتمبر ١٩٦٦، ص ٥٥.
- ٧- مجلة المسرح في يناير ١٩٢٧، وأشرف توفيق: أشهر قصص الغرام، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦، ص ١٠٠-١٠٢.
- ٨- للتفاصيل انظر حنفي المحلاوي: سيدتان من مصر، خفايا الصراع بين أم كلثوم وجيهان السادات، القاهرة، دار الشباب العربي، ١٩٩٤، ص ٢٨-٢٩.
- ٩- اشرف توفيق: أشهر قصص الغرام، ص ٩٨.
- ١٠- كمال النجمي: الغناء المصري، ص ١٠٢.